

القسم الثاني

الخصائص العامة للتربية النبوية

وهذه الخصائص تتميز بها التربية النبوية ، وكانت ذات تأثير في حياته ، ولها ضوء ناصع في التاريخ ، وبقيت منارات يهتدي بها العلماء المسلمون في تربية الأجيال المسلمة ، وتخص التربية الإسلامية دون غيرها .

١- النزعة الإنسانية في التربية النبوية :

إن الهدف الأول ، والمقصد الأسمى ، والمحور الرئيسي ، للنبوات والرسالات أصلاً : إنما هو الإنسان ، والإنسان فقط ، ليكون خليفة في الأرض ، ولتأمين مصالحه ، وتحقيق حاجاته ، فتجلب له المنافع ، وتذُرُّ عنه المفاسد ، وترفع عنه الضرر .

وإن الله تعالى كرَّم هذا الإنسان ، وخلقَه في أحسن تقويم ، وسخَّر له ما في السموات والأرض ، وذللَّ له

الجبال ، ومهّد له السهول ، وخزن له ما في البحار ، فنقطة الارتكاز الأساسية للنبوة والرسالة هو الإنسان ، ومن هنا اتجهت التربية النبوية إلى الإنسان ، دون النظر إلى صفاته العارضة ، وأحواله الخاصة ، ودون اعتبار لفوارق الجنس أو اللون أو العرق ، أو اللغة أو غيرها .

والإنسان من أعظم مخلوقات الله ، وأكثرها تعقيداً في تركيبه ، ولم يستطع التقدم والعلم أن يَسْبِرَ غوره ، ويكشف ذاته ، مع كل الاهتمام فيه ، وبقي الإنسان ، وخاصة في النواحي المعنوية ، والروحية والنفسية ، ذلك المجهول البعيد أمام العلم والبحث والنظر ، وحتى في النواحي العضوية يقف العلم موقف العَجْزِ والحيرة في التركيب والتناسب والانسجام والأداء بين الأعضاء ، مثل تركيب الدم ، وعمل الدماغ ، ونشاط الغدد ، وانسجام كريات العين^(١) .

والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، ويعلم تركيبه ، وما يصلحه ، وما يفسده ، والله وحده يعلم كل

(١) انظر كتاب : الإنسان ذلك المجهول ، تأليف ألكسيس كاريل .

ما في الإنسان من الدقة والعظمة في خلقه ، ولذلك أمرنا
 بالنظر في ذات الإنسان لنصل إلى معرفة الخالق وقدرته
 وعظمته ، ولنعرف حقيقة أنفسنا ، ونكشف أغوار ذاتنا ،
 وندرك حقيقة الواقع ما أمكن ، قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
 لِلْمُوقِنِينَ ﴾ [٢١] وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿ [الذاريات : ٢٠-٢١] ، وقال عز
 وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
 الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] ،
 وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ
 لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم : ٨] ، فالآيات دعوة صريحة للتأمل
 بالنفس ، والتفكير في ذاتها ، وإطالة النظر في ثناياها ،
 والبحث في أعماقها ، للانطلاق إلى الكون ، والتكيف مع
 الحياة ، والوصول إلى الخالق المبدع ، والتعرف على الصلة
 بالله ، وحكمته في الخلق ، وأنه لم يخلق الإنسان عبثاً ولا
 باطلاً .

ولهذه الحقائق الواقعية اتجهت التربية النبوية نحو
 الإنسان ، كإنسان كامل ، إنسان مخلوق ، وهدفت إلى بناء
 الإنسان الكامل ، الكامل في عقله ، الكامل في أخلاقه ،

الكامل في سلوكه ، الكامل في تفكيره ووعيه ، الكامل في معاملاته ، الكامل في عبوديته لله ، الإنسان الكامل في كرامته ووجوده ، هذا ما سعى إليه النبي ﷺ ، وغرسه في نفوس أصحابه ، وجذب به الملايين إلى دينه ودعوته ، ورغب فيه من يحب الإنسانية ، ومن يعشق القيم الإنسانية ، ومن يحلم بأسمى صور الإنسانية للإنسان ، ويتمنى أن يحيا كإنسان .

فالإسلام نظام إنساني ، يهدف إلى تحقيق مصلحة الإنسان ، والحفاظ على حقوقه الطبيعية والاجتماعية دون تمييز عنصري أو قومي ، وسواء أكان مسلماً أو غير مسلم ، وسواء أكان مواطناً أو غير مواطن ، ولا يفاوت بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وقيمة كل إنسان بما يتقنه ، وبمقدار ما يحسن وما يقدم من الأعمال ، قال تعالى : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ يَفْضِلُ عَمَّا يَتَمَلَّوْنَ﴾ [الأنعام : ١٣٢] ، ومن فضول القول أن نبين أن الإسلام يرفع الإنسان كإنسان ، سواء أكان رجلاً أو امرأة ، زوجاً أو زوجة ، أباً أو أمّاً ، أخاً أو أختاً ، عمّاً أو عمة ، خالاً أو خالة ، من العَصَابَات أو ذوي الأرحام ، ومن الأقارب أو الجيران أو غيرهم .

وهذا ما قصده رسول الله ﷺ في تربيته ، وسعى إليه في بناء الإنسان المسلم ، وغرسه في نفوس صحابته ، وربّاهم عليه .

وهذا ما تمثّله صحابة رسول الله ﷺ ، وتلقّوه منه ، ثم نقلوه عنه إلى غيرهم ، ثم حملوه دعوة إلى الناس جميعاً .

وقد بيّن الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب هذه المعاني السامية للنجاشي ملك الحبشة ، بعد أن أرسلت قريش من يثير حفيظة النجاشي على المهاجرين المسلمين ، ويفسد العلاقة بينهما ، ويحرّض النجاشي على البطش بالمسلمين وطردهم من بلاده ، وتسليمهم إلى أعداء الله وأعدائهم ، فأراد النجاشي أن يستوثق من الأمر ، فسأل جعفرأ عنه ، فأجابه بجواب يبين فيه الحالة الجاهلية التي كانوا عليها ، ويقارنها مع الدعوة الإسلامية الجديدة التي دخلوا فيها ، والمبادئ والقيم التي آمنوا بها ، والعقيدة التي انتسبوا إليها فقال :

« أيّها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسيءُ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكُنّا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّدَه ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد

نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعَدَّدَ عليه أمور الإسلام - فصَدَّقناه ، وآمَنَّا به ، واتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ اللَّهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نَشْرِكْ بِهِ شَيْئاً ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَّا عَلَيْنَا قَوْمًا ، فَعَدَّ بُونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا ، وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا ، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نَظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ .

وتلا عليه ما تيسَّر من القرآن من صدر سورة مريم ، فبكى النجاشي ، وقال : « إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لِيُخْرِجُنِي مِنْ مَشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ » انطلقا ، فلا والله ، لا أسلمهم إليكما ^(١) .

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٠٢/١ ، ٢٩١/٥) ، وابن هشام في السيرة النبوية (٣٣٦/١) .

فالتربية النبوية إنسانية المنشأ ، إنسانية الهدف ، إنسانية الوسيلة ، إنسانية في جميع جوانب الإنسان ، دون أن تهتم بناحية دون أخرى ، بل تولي اهتمامها بالإنسان في جسمه وروحه وعقله ، وتهتم بالإنسان في عواطفه وغرائزه وميوله ، وتعتدُّ بالإنسان في نشأته الظاهرة ، وفي تكريمه على بقية المخلوقات ، وفي حسن صورته ، وفي حياته الثمينة ، وفي وفاته ، وانتهائه ، بل وبعد وفاته ودفنه ، وفي قبره وجدته ، وفي بعثه وحسابه .

وقد حققت التربية النبوية هذا الهدف ، وتميّزت بهذه الخاصية ، وانفردت بهذه السمة على بقية النظريات التربوية القديمة والحديثة ، وبلغ أصحاب رسول الله مثلاً أعلى في تكوين الإنسان الكامل ، وفي رعاية الإنسان الكامل ، وفي تربية الإنسان الكامل ، وكانت تربية المسلمين الصادقين في كل زمان ومكان ، صورة عن الإنسان الكامل ، ونموذجاً رفيعاً لإنسانية الإنسان .

وهذه الصفة الإنسانية في التربية النبوية جذبت الملايين للدخول في الإسلام ، واعتناقه عقيدة وشريعة ، إيماناً ونظاماً ، بل لفتت هذه الصفة الإنسانية أنظار المستشرقين

المُنْصِفِينَ ، فمن ذلك ما قاله المستشرق الألماني البروفسور « موزر » بعد سماعه محاضرة في التربية النبوية في جامعة الجزائر ، قال : « اليوم أدركتُ عظمة النَّبي محمد ، وسرَّ نجاحه وانتصاراته ، لقد أولى بناء الإنسان اهتمامه بناء متكاملًا ، إننا نَجْهَلُ أموراً كثيرة عن النبي محمد ، وبخاصة ما أوضحته في محاضرتك عن سمو الأهداف التي رسمها لأصحابه في جهادهم ، وعن الصورة المتكاملة التي ربَّى عليها أصحابه »^(١) .

وهذا المعنى المقصود للنزعة الإنسانية يفسِّر لنا أسلوب الخطاب الشرعي ، فنرى أن النصوص الشرعية في القرآن والسنة تخاطب الناس جميعاً ، « يا أَيُّهَا النَّاسُ » ، وقد وردت لفظة « الناس » في القرآن الكريم وحده مائتين وإحدى وأربعين مرة ، كما خاطب القرآن الكريم الإنسان بلام الجنس ، ليشمل جنس الإنسان دون تقييد بوصف أو جنس أو لون ، وتكررت لفظة « الإنسان » في القرآن الكريم أيضاً خمساً وستين مرة ، وأكدت النصوص الشرعية أن محمداً ﷺ

(١) معجزة الإسلام التربوية ، الدكتور محمود أحمد السيد ، ص ١٠ .

رسول ونبي ، ومعلم ومرب للناس جميعاً ، وللعالمين ،
 وليس لقوم دون آخرين ، ولا لجنس دون غيره ، فقال
 تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾
 [الأعراف : ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَتَّيِّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
 الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [النساء : ١٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا
 بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] ، وقال
 عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ،
 وقال جل وعلا : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
 لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

ولم تبق هذه النصوص في حيز النظريات والفلسفات
 المجردة ، أو الشعارات المرفوعة ، أو الخيالات الذهنية ، أو
 الدعايات البراقة ، بل تحققت سلوكاً وعملاً منذ أول الدعوة ،
 وفي مجتمع البعثة الأولى ، فكان المسلمون الأوائل يتألفون من
 مجتمع إنساني عالمي ، منهم العربي القرشي كأبي بكر وعمر
 وعثمان وعليّ ، ومنهم الفارسي كسلمان ، ومنهم الرومي
 كصهيب بن سنان ، ومنهم الحبشي كبلال بن رباح وسواهم .

ثم انصهرت الشعوب والأمم في التربية النبوية ، وأقاموا
 الحضارة الإنسانية ، والمجتمع الإنساني ، والدولة الإنسانية

على أوسع رقعة من الأرض ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأكد رسول الله ﷺ هذه النزعة الإنسانية في تربيته ، وأعلن
هذا المبدأ أو الهدف في أقواله ، وعالج الشذوذ والعصبية
والانحراف بأفعاله وسيرته ، والأحاديث في ذلك كثيرة ،
فقال عليه الصلاة والسلام - فيما رواه الحاكم والطبراني - :
« سَلَمَانٌ مِّنْ آلِ الْبَيْتِ » ، وروى البيهقي عن جابر رضي الله
عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ
وَاحِدٌ ، وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ ، إِنْ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا
لَأَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لَأَحْمَرٍ عَلَى أَيْبُضٍ ، وَلَا لَأَيْبُضٍ
عَلَى أَحْمَرٍ ، فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ ؟ اللَّهُمَّ
فَاشْهَدْ ، أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ » ، وروى أبو يعلى
والبزار والطبراني أن رسول الله ﷺ قال : « الْخَلْقُ كُلُّهُمْ
عِيَالُ اللَّهِ ، فَأَحْبُّهُمْ إِلَيَّ اللَّهُ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ » ^(١) .

(١) الفتح الكبير ٢/١٥٩ ، ١٠٥ .

فأين هذه الميزة للتربية النبوية من التربية العائلية ، أو القبلية ، أو العشائرية ، أو المحلية ، أو العنصرية ، أو القومية ، التي ظهرت في التاريخ ، وتتغير رويداً رويداً في العصر الحديث ، مع بقاء آثارها حتى القرن العشرين .

٢- الشمول في التربية النبوية :

يتفرع عن الصفة الإنسانية للتربية النبوية خاصية أخرى ، وهي الشمول ، ذلك أن الإسلام جاء بعقيدته وشريعته ليشمل جميع الجوانب التي تتعلق بحياة الإنسان وترعاه من المَهْد إلى اللُّحْد ، وتغطي جميع مجالات الحياة الإنسانية ، فخاطب الإسلام العقل ، واعتمد عليه ، وسعى لتغذيته ، ودعا لتنميته ، وحرصَ على تفتحه ، وبوَّأه المكانة اللائقة ، والرعاية الكاملة ، ثم عمل الإسلام على تغذية الروح ، وإشباع تطلعاتها ، وإرواء طموحاتها ، ودعا إلى الأخلاق الفاضلة ، واعتبر بناء الأخلاق من أهم أهداف الرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »^(١) ، واهتمت التربية النبوية

(١) رواه البخاري في « الأدب » والحاكم والبيهقي ومالك وأحمد (الفتح الكبير ٤٣٧/١ ، فيض القدير ٥٧٣/٢ ، مسند أحمد ٢/٢٨١) .

ذاتهم وأسرتهم ومجتمعهم ، فنظّمت علاقة الإنسان بنفسه ،
وعلاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بأفراد مجتمعه ،
وأحكمت العلاقة بين المواطن والدولة ، وربطت الإنسان
بالكون ، ودعت إلى إعمار الأرض واستغلالها ، واعتبرت
عمر الإنسان رأس المال الحقيقي عنده ، وأعظم ثروة لديه ،
فالإسلام هو الحياة ، ولم تحصر التربية النبوية الحياة الإنسانية
بأمد قصير ، وحياة فانية ، بل فتحت أمامها الدار الآخرة ،
والحياة الدائمة ، والنعيم الخالد .

والتربية في الأعم الأغلب ، تتجه إلى الصغار والناشئين ،
الذين ينتقل إليهم التراث الثقافي الذي تشكّل عبر القرون
والبيئة والمجتمع ، ليحدّد سلوكهم ، ويكسبهم المهارات
المختلفة ، ويمنحهم قدرة التكيف مع الناس ، ويعتبر علماء
التربية أن هذه العملية معقّدة وصعبة ، وأن نتائجها محدودة ،
على الرغم من الاستعداد الكافي عند الصغار والناشئين ،
وانتفاء الرواسب الفكرية عندهم ، وصفاء الخلفية من
المؤثرات السابقة التي تحول بينهم وبين التربية .

أما التربية التي قام بها الرسول ﷺ فكانت موجهة أصلاً
للكبار والمسنين ، والكهول والشيخوخ ، ومن هم أكبر سناً من

الرسول الذي تجاوز الأربعين عاماً عند أول البعثة ، وكان هؤلاء الأشخاص - سواء في مكة أو المدينة أو الجزيرة العربية ، أو خارجها وما حولها - يشكلون مجتمعاً متكاملأ ، ويحملون ثقافات واسعة ، ولهم خلفيات عميقة ، ورواسب ذات جذور ، فكانت العملية التربوية بينهم أشدَّ تعقيداً ، وشبه مستحيلة ، وكانت العقبات في وجه الرسول شديدة وعويصة ، والصعوبات جمّة وكثيرة ، وكانت تترك آثاراً واضحة على نفسية الرسول المعلم ، فكان القرآن الكريم يرسم له الطريق ، وينير له الحياة ، ويوجهه إلى الثبات والاستمرار .

ولم يتجه الرسول المعلم إلى تربية الفئة المختارة من الناس فحسب ، والطبقة المتفتحة منهم ، ومن سيكون في المستقبل معلماً ومدرساً ، أو داعياً وموجهاً ، بل كان مكلفاً بدعوة جميع الناس ، وكانت تربيته شاملة أفراد المجتمع ، الكبير والصغير ، الغني والفقير ، الذكر والأنثى ، الذكي وغيره ، المتعلم والعامي ، وهذه التربية النبوية مقررة للأجيال اللاحقة ، والأمم التالية ، والحضارات التي ستقام ، وأنها ستبقى في مجال التطبيق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،

ينهل منها المفكرون والعقلاء ، ويرتاد جنباتها المسلمون والدعاة ، ويستفيد منها الجماعات والأفراد .

وكانت نتيجة هذه التربية النبوية على مختلف الأصعدة - وستبقى - تخريج الأجيال ، التي ترتبط بالرسول المعلم ارتباطاً مصيرياً ، وتجعل منه قدوة وأسوة ، وتعلن محبته ، وتفضله على النفس والمال ، والولد والوالد ، وتفديه بكل شيء ، وتردد المبدأ التربوي الرائد ، بأبي أنت وأمي ، فذاك أبي وأمي يارسول الله ، تحقيقاً للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ ، وَوَالِدِهِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »^(١) ، وكان أثر ذلك في نفوس صحابته ما أخرجه الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي ، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ ، فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِي فَأَنْظَرَ إِلَيْكَ ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ

(١) الفتح الكبير ٣/ ٣٥١ .

عرفتُ أنَّكَ إذا دخلتَ الجنةَ رُفِعَتْ مع النَّبِيِّينَ ، وأُني إذا دخلتُ الجنةَ خشيتُ أن لا أراكَ ، فلم يردَّ عليه النَّبي ﷺ شيئاً حتى نزلَ جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ^(١) [النساء : ٦٩] ، والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة الصحابة ، وهي ظاهرة ملموسة ومتكررة في نفوس المسلمين في كل زمان ومكان .

إن هذا الشمول في التربية النبوية أنتج الإنسان الكامل في أخلاقه ، والإنسان السَّوي في حياته وتصرفاته ، والإنسان المستقيم في سلوكه ، والإنسان السامي في روحه ، والإنسان الْمُتَرَنَّ في أعماله ، والإنسان القدير على حمل المسؤولية ورعايتها ، والإنسان الواعي في عقله ، والإنسان المتفتح لمستقبله ، والإنسان الفاضل في حب الخير لنفسه ، ولغيره على حدٍّ سواء .

وإن التربية لا تنجح في سعيها ، ولا تُنتج ثمارها ، ولا تعطي محصولها إلا إذا أحاطت بالإنسان إحاطة كاملة شاملة

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، ص ١٤٠ .

من جميع الوجوه والنواحي التي يتركب منها جسمياً وعقلياً ونفسياً ، وروحياً ، وعضوياً وانفعالياً ، وأن هذه التقسيمات للإنسان هي لمجرد الدراسة والبحث ، فلا انفصال فيها ، ولا حدود بينها ، وهي كلُّ تتفاعل مع بعضها ، ويؤثر بعضها في الآخر ، ولا بد من الرعاية الكاملة والاهتمام الكافي لجميع الجوانب ، وإلا كانت التربية عرجاء أو مشلولة ، أو أدت إلى الانحراف إلى جانب ، أو وقعت في الإفراط والتفريط ، وأفقدت الإنسان جزءاً من إنسانيته ، وهو ما حصل في أنواع التربية التي اهتمت بأحد جوانب الإنسان وأهملت غيره .

وهذا ما حذّر منه الدكتور الكسيس كاريل ، فقال :
« كثيراً ما يحدث أن نعطي أهمية مبالغاً فيها لجزء ما على حساب أجزاء أخرى ، فيتعين علينا أن ننظر إلى الإنسان من مختلف جوانبه ، الفيزيو - كيميائية ، والتشريحية ، والفيسيولوجية ، والروحانية ، والعقلية ، والأخلاقية ، والفنية ، والدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، إلخ... » ، ثم يقول : « يخليل إلى كل عالم تحت تأثير التخصص المهني الضيق أنه يعرف الكائن الإنساني ، مع أنه لا يعرف منه إلا جزءاً يسيراً ، فتعتبر وجهات النظر الجزئية

كانها تعبر عن الكل » ، ثم يقرر الحقيقة كاملة فيقول :
« الإنسان غير قابل للتقسيم إلى أجزاء... » ، فلو أننا فصلنا
أعضائه بعضها عن بعض لكف عن الوجود ، وعلى الرغم من
عدم قابليته للتجزئة ، فإن له جوانب متنوعة ^(١) .

هذه النظرية الكلية الشاملة للإنسان ، مع مراعاة الأجزاء
المكون منها ، والجوانب المختلفة المركب منها ، كانت
محط النظر في التربية النبوية الشاملة بعمق وإدراك ، ووعي
وتخطيط ، وتوجيه وتنفيذ ، وشرعت الأحكام الشرعية أصلاً
لمعالجة هذا الإنسان الكامل ، وتشمل جميع جوانبه ، وتلبي
له احتياجاته ، وتروى له متطلباته ، وجاءت الشريعة الغراء
لتأمين مصالح الإنسان ، فنصت على كل منها ، وبيّنت
أهميتها وخطورتها ومكانتها في تحقيق السعادة للإنسان ، ثم
أنزلت الأحكام لتحقيقها ، وكان منهج التشريع في ذلك يسير
على خطين متوازيين ، أحدهما : ينص على الأحكام الشرعية
التي تؤمن وجود الإنسان ، وإيجاد مصالحه وتكوينها ،
والثاني : يبين الأحكام الشرعية لحفظ الإنسان ، وحفظ

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٦٤ ، ٧١ .

مصالحة ، وصيانتها ورعايتها ، ومنع الاعتداء عليها ، أو الإخلال بها ، مع النص على ضمانها والتعويض عنها .

ولم تقتصر التربية النبوية على سعة الشمول في الإنسان ، بل تجاوزت هذه الصفة إلى سمة أخرى ، أكثر خطراً ، وأشد دقة ، وهي إقامة التوازن بين أجزاء الإنسان ، وبين متطلباته وحاجاته ، وبين الجوانب المتعددة التي يتركب منها ، أو يغمس فيها ، أو يقبّع بين جنباتها .

٣- التوازن في التربية النبوية :

تقوم الشريعة الإسلامية عامة ، والتربية النبوية خاصة ، على ميزة فريدة ، وهي إقامة التوازن الكامل بين جميع الأمور التي تتعلق بالإنسان عامة ، والتربية خاصة ، ذلك أن مصدر الشريعة ، ومُتَزَلَّ المنهج التربوي فيها هو رب العالمين ، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وصَوَّرَهُ فأحسن صورته ، والذي خلق المخلوقات كلها ، ويعلم تركيبها ، ويعلم كل شيء في الإنسان والكون والحياة وما وراء الحياة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [المجادلة : ٧] ، ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ ﴿[المائدة : ٩٧] ، وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿[ق : ١٦] ، ﴿فَلَا يَخْزُنَاكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس : ٧٦] .

والله سبحانه وتعالى كشف لرسوله هذا الخباء ، ووصف له التشخيص الكامل للإنسان ، وبيّن له العلاج المناسب ، والغذاء المفيد ، وحقق رسول الله ﷺ في سلوكه وحياته وسيرته هذا التوازن الكامل ، وقامت التربية النبوية على أساس متوازن ، ودعا الصحابة إلى هذا التوازن ، ورعى شؤون الإنسان بشكل متوازن من جميع الجهات ، وحدد منهج الإسلام في التوازن بين جميع الجوانب .

- فمن ذلك التوازن بين أمور الدين في العقيدة والعبادة ، وبين شؤون الدنيا بجميع أنحائها وأرجائها في المتع والملذات ، والغرائز والشهوات ، والبناء والإعمار ، والعمل والكسب ، والاجتماع والدولة ، والأفراح والأحزان .

- وكان رسول الله ﷺ يحقق هذا التوازن ، وهو نبي مرسل ، ومعلم مربّ ، ورئيس دولة ، وزعيم سياسة ، يُحسن سياسة الأصحاب ، كما يُحسن معاملة الخصوم والأعداء ، يُجيد تصرف شؤون الدولة الداخلية ، كما يبدع

في تحديد علاقة الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى ،
الحليفة منها والمعادية ، وفي أوقات السلم ، وفي ظروف
الحرب على حد سواء .

- وكل هذا لا يشغله عن واجباته الزوجية ، وصلاته
الاجتماعية ، وقيامه بشؤون نفسه وبيته ، ورعايته لأولاده ،
وسائر المسلمين ، ولا يُنقص من صلته بالله تعالى بالعبادة
والذكر ، وتلاوة القرآن وقيام الليل ، فكان عليه الصلاة
والسلام أتقى الناس لربه ، وأكثرهم له طاعة وعبادة ،
وأشدّهم حرصاً على مناجاته وشكره ، يقوم الليل لله ،
ويكُدّح في النهار لأُمته ودولته ومجتمعه وأهله وأسرته ،
ويكفي في الاستدلال لذلك أن رسول الله ﷺ كان يقوم الليل
حتى تَرِمَ قَدَمَاهُ ، وقالت زوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله
عنها : « حتى تتفطر قدماه » ، والفطور الشقوق ، وانفطرت
انشقت ، وروى البخاري ومسلم وأحمد عن المغيرة بن شعبة
قال : « إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى تَرِمَ قدماه أو
ساقاه ، فيقال له ؟ ، فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً » ، وفي
رواية مسلم : « إن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه ، فقبل
له : أتكلّف هذا ، وقد غفرَ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١) .

ومن ذلك التوازن بين الدنيا والآخرة ، وهذا فرع من القسم الأول ، وهو التوازن بين الدين والدنيا ، وجاء القرآن الكريم لإقامة التوازن الدقيق والكامل بين الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وأدى رسول الله ﷺ التطبيق الصحيح والدقيق لهذا المنهج القرآني في تحقيق التوازن بين الدنيا والآخرة ، واتجهت التربية النبوية إلى إقامة هذا التوازن في صفوف الصحابة والمسلمين ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرفته ، ولا آخرفته لدنياه ، حتى يصيب منهما جميعاً ، فإن الدنيا بلاغٌ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كلاً على الناس »^(٢) .

(١) صحيح البخاري ١/١٣٦ ، صحيح مسلم مع شرح النووي ١٧/١٦٢ ، مسند أحمد ٤/٢٥٥ .

(٢) رواه الديلمي وابن عساكر عن أنس بن مالك (الفتح الكبير ٧/٥٩) .

وحذّر رسول الله ﷺ من احتمال ترجيح الآخرة على الدنيا ، وأن يتسرب ذلك إلى نفوس المتدينين ، فحرم الانقطاع عن الحياة الدنيا ، وأنكر التبتل والامتناع عن الزواج ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا رهبانية في الإسلام »^(١) ، والرهبانية هي التفرغ للطاعة والعبادة ، والانعزال عن الناس والحياة ، والعزوف عن الدنيا والمال ، والتخلي عن الطيبات والملذات ، وحرمان النفس من المباحات ، وقمع الشهوات والغرائز .

وأدرك صحابة رسول الله ﷺ هذا القصد من التوازن بين الدنيا والآخرة ، فكانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار ، عباداً لله مخلصين له وأتقياء ، وفي نفس الوقت يصرفون أمور الدنيا من رئاسة الدولة حتى كسب القوت للعيال ، وأيقنوا أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وترجموا التربية النبوية إلى حياتهم وعملهم ، وعبروا عنها بأقوالهم ، فمن ذلك قول علي

(١) هذا حديث مشهور على ألسنة الناس ، لكن قال ابن حجر : « لم أره بهذا اللفظ » وورد معناه بألفاظ قريبة في أحاديث رواها البيهقي والدارمي والإمام أحمد (كشف الخفا ٥٢٨ ، وانظر : محاسن التأويل ١/٣١٣٤) .

رضي الله عنه : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ومن ذلك التوازن بين الروح والجسد والعقل ، وهي العناصر التي يتكون منها الإنسان ، وسبق في سمة الشمول أن التربية النبوية شملت ذلك تماماً ، ولكن الأهم منه هو تحقيق التوازن بين هذه العناصر ، وقد أدى الخلل في رعاية أحد هذه العناصر دون بقيتها إلى شطط كبير في تاريخ البشرية من القدم حتى وقتنا الحاضر ، من زهد روحي عنيف ، قتل عند الإنسان جسمه ، وألغى عقله ، وجمّد فكره ، وخدّر حياته ، ونشل نشاطه ، ابتداء من الزهد الهندي القديم والحديث ، إلى المذاهب الروحية المعاصرة ، وبالمقابل نرى المادية القاتلة ، وتربية الغرائز الجامحة ، والانكباب على المادة والحياة الفانية ، والتغذية الجسمية التي أضحت مشابهة لتربية الأبقار ، أو تسمين العجول ، أو علف الماشية ، وأدت إلى انحطاط خلقي ، وشقاء نفسي ، واضطراب ذاتي ، فبعث اليأس في القلوب ، والاندفاع نحو الانتحار ، أو الانغماس في الشهوات التي لا حدّ لها ، واهتم فريق ثالث بالعقل حتى حمّله فوق ما يطيق ، وجعل منه إلهاً كاذباً ، وسار فيه وراء

الخيال والوهم ، وشغل الناس بفلسفات خيالية ، وأفكار خادعة مينة لا حياة فيها^(١) .

وجاءت الشريعة الغراء عامة ، ومنذ نزولها ، والتربية النبوية خاصة ، قولاً وعملاً وتطبيقاً ، ترعى الروح والجسم والعقل ، وتقيم التوازن بينها ، وجمع رسول الله ﷺ بين مناجاة الروح وتهذيبها ، وبين مخاطبة العقل وإقناعه ، وقضى على الخرافة والجهل والتقليد الأعمى ، وأنكر الكهانة والعرافة ، وحرّم السحر والعبث الفكري والروحي ، ووازن بين مصلحة الإنسان وإرضائه لخالقه عز وجل ، وجمع بين التزام العقيدة ، وبين حرية الإنسان في تصرفاته من غير إكراه على الدخول في الدين ، ونهى الرسول ﷺ على الإفراط في جانب ، والتفريط في آخر ، ولو كان في مسائل الدين ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً^(٢) ، والمتنطّعون هم المبالغون في الأمور ، المتشدّدون في غير موضع التشديد ، وروى

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية لنا ، ص ١٤٥ ، وظيفة الدين في الحياة ، لنا ، ص ٨٤ ، ١٣٦ .

(٢) الفتح الكبير ٣/٢٩٣ .

البخاري ومسلم وأصحاب السنن وأحمد والدارمي أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ » (١) .

ودعا رسول الله ﷺ إلى التوسط في الأمور ، والاقتصاد في الاعتقاد ، والسماحة في المعاملات ، ورهب من الإفراط حتى في العقيدة والعبادة والأخلاق ، ومنع التشدد في الأحكام والتصرُّفات ، وبيَّن أن الإفراط في أركان الإيمان والعقيدة بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، وفي الأنبياء وصفاتهم يؤدي في الغالب إلى الكفر والشرك ، كما حصل مع الأمم السابقة ، وأن الإفراط في العبادة والنسك يخرج الإنسان عن وظيفته الأساسية في الحياة والكون ، ويقضي على التوازن الذي انتهجه الإسلام .

ومن فروع هذه السُّمة التوازن بين الفرد والمجتمع ، لأن التربية الإسلامية عامة ، والتربية النبوية خاصة ، تتجه إلى بناء الإنسان ، والاهتمام به كهدف قائم بذاته فحسب ، كما سبق ، ولكن النظرة الإسلامية تدرك أن الإنسان ليس فرداً

(١) صحيح البخاري ٣٨٧/١ ، نزهة المتقين ١٧١/١ .

قائماً بذاته ، ولم يخلق من أجل أن يحيا لنفسه ، ولا يقبل أن يسعى لتحقيق مصالحه الذاتية فحسب ، فالإنسان يعيش في جماعة ، وهو اجتماعي بطبعه ، لذلك اتجهت التربية النبوية لمراعاة الجانب الاجتماعي في تربية الفرد ، وحرصت على بناء الإنسان باعتباره كائناً حياً مستقلاً قائماً بذاته من جهة ، وباعتباره عضواً قائماً في جماعة من جهة أخرى ، فالفرد يؤثر في المجتمع ، ويكسب من المجتمع ، والمجتمع يُبنى ويقوم على الأفراد ، ويمنحهم الكثير الكثير ، وكما تتوقف الحياة الاجتماعية على العناصر البشرية الفردية ، وعلى صحة الفرد ، وسلامته ووجوده وحياته ، فإن الفرد يتوقف نماؤه الكامل ، وسلوكه السوي ، ونشاطه الفعال على أثر المجتمع فيه ، ورعايته له ، وقوة بنائه ومؤسساته .

والتربية الإسلامية اهتمت بكلا الطرفين ، واتَّجَهِت إلى تربية الفرد ، وإلى إقامة المجتمع الإنساني ، وإقامة أركانه وقواعده ، ولم تقف التربية النبوية عند هذه المرحلة ، بل استطاعت أن تقيم التوازن الكامل والعادل بين الفرد والمجتمع ، فلا يطفئ الفرد على حقوق الجماعة ، فيستغل خيراتها ، ويحتكر قوتها ، ويستعلي عليها ، ويبتز مواردها ،

فيسيء إلى مجتمعه وأمته ، ثم يعود الويل والدمار عليه ، كما لا يجوز أن تغطي الجماعة على الفرد ، فتسلخه من إنسانيته ، وتجعله كالآلة للإنتاج والعمل ، وتحصر حياته بتأمين الغذاء والقوت كالحيوان ، وتقضي على ميوله وعواطفه ، وتحاول أن تجتث منه غرائزه وفكره وعقله ، فتحجّم كيانه ، وتحدّ من نشاطه ، وتغفل إنسانيته ، وتفتت وجوده ، فتسيء إليه أولاً ، فيكون معول هدم للمجتمع ذاته^(١) .

ونجحت التربية النبوية في تحقيق هذا التوازن الحساس بين الفرد والمجتمع ، بينما أخفقت مناهج التربية الأخرى قديماً وحديثاً ، وخاصة في عصرنا الحاضر الذي تغطي فيه الفردية والأنانية في شطر الكرة الأرضية ، وتسود التربية الجماعية المفرطة في الشطر الآخر .

وفي هذا الخصوص فقد تكون التربية عامة وشاملة لكل نواحي الإنسان ، ولكنها لا تحقق التوازن الكافي بين عناصره وأجزائه ، وما يتعلق بالإنسان أو يتصل به ، فيقع الخلل ، وينتج الاضطراب .

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية ، لنا ، ص ١٤٧-١٥٢ ،
وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه ، ص ٨٤ ، ١٣٦ .

وقد تسعى التربية إلى تحقيق التوازن في متطلبات الإنسان ، ولكنها تجهل بعض الجوانب الإنسانية أو الفطرية أو العضوية أو النفسية فيه ، فتقع التربية - حتماً ولا محالة - في الخلل والاضطراب ، ويظهر الشذوذ ، وينتج الانحراف ، ويفقد الاتزان .

وقد يكشف العلم تركيب الإنسان ، ولكنه لا يدرك النسبة الصحيحة بين أجزائه وعناصره الأولية ، فتقع التربية نتيجة هذا الجهل ، أو الخطأ في التشخيص ، في العجز والنقص ، أو الاضطراب والانحراف ، وهذا ما يُشير إليه الدكتور ألكسيس كاريل ، ويحذر من مَغَبَّتِهِ ، فيقول : « فنحن لا ندرك غير جوانب من الإنسان وأجزاء منه ، بل إن هذه الأجزاء ليست سوى نتائج طرائقنا في البحث ، ليس كل منا غير مؤكب من الأشباح تسير وسطها الحقيقة التي لا يمكن معرفتها ، فالواقع أن جهلنا مُطْبِقٌ » ، ثم يقول : « نحن بعيدون عن معرفة العلاقات التي توجد بين نمو الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء ، وبين نمو النشاط العقلي والروحي ، وكذلك نحن لا نعرف ما الذي يسبب توازن الجهاز العصبي ومقاومة التعب والأمراض ، ونحن نجهل كذلك كيف نرقى بالحس

الخلقي والحكم والجراً ، ما هي الأهمية النسبية لأوجه النشاط الفكري والخلقي والفني والديني»^(١) .

وهذه العوارض ، أو النواقص ، أو الآفات والأخطاء ، مفقودة في التربية الإسلامية ، ومتفية في التربية النبوية ، لأن المسلم - وإن جهل علمياً التركيب الصحيح والكافي والكامل للإنسان - فإنه يتلقى الدواء الشافي ، والأسلوب السليم لاستعماله من رب العالمين ، الخالق لهذا الإنسان ، الذي أبدعه وفطره ، إنه الخالق الحكيم ، ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ [الرحمن : ٣-٤] ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، فالله الخالق المصور لهذا الإنسان يعلم تركيبه التام ، وحاجاته الكاملة ، وأنزل المنهج الإلهي الرباني في التربية لتغطية كل جانب فيه ، بما يكفيه ، دون زيادة أو نقصان ، وبالنسبة التي يحتاجها ، وهذا المنهج التربوي المنزل يشبه أجهزة التحكم النظامية في الوسائل الحديثة ، ويشبه الأعضاء التي خلقها الله تعالى وأبدعها في جسم

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، وانظر : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص ٣٩ ، الرسول العربي المربي ص ١٩٧ .

الإنسان ذاته ، للتحكم في نظامه غذائياً ، وعضوياً ، وتعرف بالغدد .

وهذا المنهج التربوي يشبه إلى حد ما الأدوية التي تتركب من مواد مختلفة ، وينسب محددة ، وكميات مقدرة ، وكل خلل في تركيب الدواء ، أو الزيادة في نسبة المواد المركب منها ، يؤدي إلى إفساده ، وربما إلى قلبه إلى مادة ضارة أو سامة أو معدومة النفع .

ومن هنا تظهر أهمية خصائص التربية النبوية في التوازن الذي حققه في تربية الإنسان منهجاً وسلوكاً ، نظاماً وتطبيقاً ، ولم يحقق هذا التوازن ثماره ونجاحه إلا بسبب صفة أخرى في خصائص التربية النبوية ، وهي السمو في الأهداف ، والوضوح في الغايات ، والصراحة في الوسائل .

٤- السمو في أهداف التربية النبوية :

إن خاصتي الشمول في التربية ، والتوازن فيها ، أمران عظيمان ، ولكن تبقى التربية مهیضة الجناح ، وقليلة الأهمية ، كليلة الجانب ، إن لم تكن الأهداف المرسومة لها جليلة وسامية .

وقد تتجه التربية أحياناً إلى الشمول ، وتسعى لتحقيق

التوازن عند الإنسان ، ولكن ضمن أهداف وضیعة ، أو
غایات دنیئة ، أو عقائد فاسدة ، أو أفكار باطلة ، فیضیع
المجهود ، وتغرق الوسائل فی المصبب التتن ، والحوض
الآسن .

وقد تكون الأهداف سامیة ، ولا ینكرها عاقل ، ولكنها
محصورة فی إطار محدود ، كالوطن والقوم ، مما يؤدي فی
النتیجة إلى عصبیة جاهلیة ، أو نزعة عنصریة ، أو وهیج
وطنی .

ومن هنا تتميز التریبة عن غیرها بسمو الأهداف التي تسعى
إلیها ، وبعد الغایات التي ترمي إلى تحقیقها ، كما تصبح
معرفة الهدف من التریبة أمراً مقصوداً وجوهریاً وأساسیاً ،
وإلا ترنحت التریبة فی خطاها ، وتسربلت فی حبالها ،
وكانت كمن یخبط خبط عشواء ، أو یسیر فی الصحراء تائهاً
من غیر هدی أو دلیل ، بل إن تحدید الهدف أمر ضروري فی
التصرف فی الحیاة لكل عاقل أو مفكر ، ومن یتصرف بدون
هدف فهو الأهل أو المعتوه أو المجنون ، وفی هذا یقول
الشاعر :

كلُّ له غرض يسعى لیدركه والحرُّ یجعل إدراك العلا غرضاً

وقد اختلفت أهداف التربية قديماً وحديثاً ، فهدفت التربية اليونانية إلى إعداد المواطن الصالح ، وهدفت التربية الأفلاطونية إلى إعداد المواطن المستنير ، وهدفت التربية المسيحية إلى خلاص الإنسان من أدران الرذيلة ، وهدفت التربية الهندية إلى تطهير المرء من رجس الحياة الدنيا ، وهدفت التربية الطبيعية إلى تزويد العقل بالمعرفة ، واتجهت بعض المذاهب إلى الناحية الاجتماعية على حساب الفرد ، وحصرت بعض العلماء الغاية من التربية بالجانب الأخلاقي ، وركزي الأخلاق الإنسانية ، أو بلوغ درجة الكمال الإنساني ، ويحصر بعضهم أهداف التربية بتأمين مهارة فائقة للفرد ، أو بالتكيف مع المجتمع والبيئة .

أما التربية النبوية ، فكانت تهدف إلى تحقيق الأهداف السامية ، والغايات النبيلة ، والنتائج الحقيقية ، والمعاني الواضحة التي تتعلق بالإنسان بشكل شامل ، وبأسلوب متوازن وتقصد إلى بناء الإنسان الكامل ، وإعداد الإنسان الصالح ، والإنسان باعتبار أنه إنسان ، دون حصره ، بوطن أو قوم ، أو أمة أو مجتمع ، أو لغة أو بيئة ، وإنما هو الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم ، وصوّره في أحسن

صورة ، وجعله خليفة له في أرضه ، كما سبق ، حتى ولو اختلف مع المسلم في دينه وعقيدته ، وأفكاره وثقافته .

لذلك جاءت الشريعة لتأمين مصالح الإنسان عامة ، بجلب المنافع له ، ودفع المضار عنه ، فترشده إلى الخير ، وتهديه إلى سواء السبيل ، وتدله على البر ، وتأخذ بيده إلى الهدى القويم ، وتكشف له المصالح التي تؤمن له السعادة في أي مكان ، لأنها دعوة عالمية للناس جميعاً .

ويتحدد الهدف بتحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة ، في العاجل والآجل ، ومصالح الناس في الدنيا هي كل ما فيه نفعهم وصلاحهم وسعادتهم وراحتهم ، وكل ما يساعدهم على تجنب الأذى والضرر ، ودفع الفساد إن عاجلاً أو آجلاً ، ومصالح الناس في الآخرة هي الفوز برضاء الله في الجنة ، والنجاة من عذابه في النار ، وإنَّ كل حكم شرعي إنما نزل لتأمين أحد مصالح الإنسان ، أو لدفع أحد المفسد عنه ، أو لتحقيق الأمرين معاً ، وقد ثبت بالاستقراء أنه ما من مصلحة في الدنيا والآخرة إلا وقد رعاها الشرع ، وأوجد لها الأحكام التي تكفل إيجادها والحفاظ عليها ، وأن المشرع الحكيم لم يترك مفسدة في الدنيا والآخرة ، في العاجل والآجل ، تلحق

بالناس ، إلا بيّنها لهم ، وحذّرهم منها ، وأرشدهم إلى
اجتنابها والبعد عنها ، وهذا ما لخصه الإمام القرافي بجملة
قصيرة فقال : « الشرائع مبنية على المصالح »^(١) .

وعلى ضوء هذه الأهداف والغايات تسير التربية النبوية في
إعداد الإنسان الصالح ، بكل ما تحمل هذه العبارة من معان ،
وبكل ما تعطي من وضوح « الإنسان الصالح » ، لنفسه
وأُمته ، ووطنه ومجتمعه ، ودينه وعقيدته .

فالهدف هو بناء الإنسان الكامل ، والإنسان الصالح من
مختلف الجوانب التي يتركب منها ، في أصله ، ومنشئه ،
وفي وجوده وتكوينه ، وفي نشأته وتطوره ، وفي نهايته
وخاتمته ، وفي مصيره ومآله ، وفي ذاته وما يحيط به .

ومن هذا السمو لأهداف التربية النبوية تظهر سوءات
التربية الأخرى ، القديمة والحديثة ، وتكشف عيوبها ،
وتعرف نواقصها ، وتوضح نظراتها الضيقة في المدينة أو
الوطن ، أو في ناحية العقل ، أو العواطف والغرائز ، أو

(١) شرح تنقيح الفصول ص ٤٢٧ ، وانظر : كتابنا أصول الفقه
الإسلامي ص ٧٧ .

الدين المحض أو المادية المفرطة .

وإن سمو الأهداف في التربية النبوية اقترن بصفة مهمة أخرى ، وهي وضوح الأهداف التي رسمها المنهج الإلهي ، ودعا إليها الرسول المعلم ، ولذلك يمكن حصر هذه الأهداف بأمرين اثنين :

أ - غرس العقيدة الصحيحة ، وتصفيتها مما علق بها من شوائب أو انحراف أو أخطاء شائعة ، وهذه العقيدة التي تتعلق بالخلق أولاً ، ثم بالكون والحياة والإنسان ، والتي عبر عنها الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »^(١) .

ب - تقويم السلوك في صلة الإنسان مع ربه بالعبادات ، وفي صلة الإنسان مع أخيه الإنسان في جانب القيم بالأخلاق الفاضلة ، وفي علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان في التعامل في شؤون المادة والحياة بالمعاملات .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً ، انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٥٧ .

وكانت هذه الأهداف واضحة وضوح الشمس في التربية النبوية ، وكانت هذه المعاني التي يحملها النبي ﷺ جليلة في نفسه وقلبه منذ أول البعثة إلى آخر يوم في حياته الشريفة ، وإنما بدأ بالتدرج فيها ، وأعلن المبدأ الأول من أول يوم ، وأنه ينحصر بشهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وغرس هذا المبدأ في قلوب الصحابة ، وأعلنه على الملأ في مكة وجميع أندية قريش ، وثبت عليه طوال العهد المكي ، لا يتزحزح عنه ، ولا يساوم عليه ، ولا يقبل المفاوضة فيه ، مهما اعترضته المحن والمصاعب ، أو أحاطت به الخطوب والأهوال .

ونكتفي بالتدليل على ذلك أن نذكر بعض ما جاء في السيرة النبوية عندما جاء عتبة بن ربيعة وكان سيد قومه ، وجلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السُّطة (أي المنزلة الرفيعة) في العشيرة ، والمكان والنسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفَّهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها ، فقال رسول الله ﷺ :

« قل يا أبا الوليد أسمع » ، فقال : يا بن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً (وهو التابع من الجن) تراه ، ولا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يُدأوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه ، نظر إليه بشفقة ورحمة ، وقرأ عليه القرآن حتى استحوذ على قلبه ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكنّ الله تعالى بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » ، ورجع عتبة بغير الوجه الذي جاء به ، وقال لقومه : إنّي سمعت قولاً ، والله ما سمعتُ مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلّوا بين هذا

الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم^(١) .

وفي حادثة أخرى ، مشى أشراف قريش إلى أبي طالب عم النبي ﷺ ، الذي حذب عليه وقام دونه فلم يُسلمه لهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلَهِتَنَا ، وعاب ديننا ، وسفَّهَ أحلامنا ، وضللَّ آبَاءنا ، فإِما أن تكفه عنا ، وإِما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه فنكفيك ، فقال أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردَّهم ردّاً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ثم ضاقوا ذرعاً بدعوة النَّبِيِّ ﷺ فعادوا إلى أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب ، إِنَّ لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإِنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإِنا والله ، لا نصبر على هذا . . . حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإِياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ، ولا خذلانه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاؤوني ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام ١/٣١٣ ، ٣١٦ ، فقه السيرة : البوطي ، ص ٧٨ ، صور من حياة الرسول : دويدار ص ١٧١ .

فقالوا لي كذا وكذا ، فابق علي وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » ، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلما ولى ، ناداه أبو طالب فقال : اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوسد في التراب دفينا^(١)

وما زال الوضوح في أهداف التربية النبوية طوال البعثة ، وكان هذا الوضوح أحد أسرار البساطة التي امتازت بها التربية النبوية ، والشريعة الإسلامية ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « يا معشر قريش ، قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم »^(٢) . ، وكان شعار التوحيد يسري في دماء

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٧٦/١ ، فقه السيرة ، الغزالي ص ١١٥ .

(٢) (طبقات ابن سعد ٢١٦/١) .

الصحابة ، ويغذي جسمهم وعقلهم وروحهم في جميع مجالات الحياة ، ولما جاء التشريع في العبادة والأخلاق والمعاملات ، وجد القابلية الكاملة في النفوس ، ولقي القبول السريع ، والتطبيق الدقيق ، والالتزام العملي في الحياة .

كما اقترن بسمو الأهداف ووضوحها في التربية النبوية الصراحة في الأسلوب ، فكان رسول الله ﷺ يعلن العقيدة ، وبيّن العبادة ، ويطلب الأحكام الشرعية ، بمتهى الصراحة التي لا يشوبها مواربة ، ولا لف ولا دوران ، ولا غموض ولا إبهام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنْ مَالِهِ وَنَفْسِهِ إِلَّا بِحَقِّهِ ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ » (١) .

وكان عليه الصلاة والسلام يربي الأمة بالصراحة ، ويعلن الأحكام بصراحة ، ويواجه الصعاب بصراحة ، ويحل المشكلات بصراحة ، ويجد حل المعضلات بصراحة ،

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً (صحيح مسلم بشرح النووي ٢٠٦/١) .

وسواء كانت مع أصحابه ، أو أهل بيته ، أو بين أزواجه ، أو مع خصومه وأعدائه ، ويصل في ذلك إلى نتائج تربوية فريدة في صفاء النفوس ، وسلامة الحلول ، وحسن النتائج .

وإن التربية النبوية جاءت بنصوص واضحة صريحة ، كما وصلت إلينا والحمد لله بشكل صحيح واضح ، ولا تحتاج إلى الاستنباط أو الاجتهاد ، أو الاعتماد على الإشارة ، ولكن الفارق الوحيد بينها وبين التربية الحديثة عدم استخدام المصطلحات التربوية المعاصرة ، وعدم جمعها في باب تربوي ، لأنها مبثوثة في كتب الحديث والسيرة ، ومنهجها موجود في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو أصح كتاب على وجه البسيطة ، وهذا الاختلاف في الاصطلاح لا يعيب التربية النبوية ، ولا ينقص من قيمتها ، وقديماً قال العقلاء : « لا مشاحة في الاصطلاح ، والعبرة في الأمور بالمعاني لا بالألفاظ والمباني » .

وقد يكون العذر في عدم جمعها في باب تربوي أن القرآن كله ، والسنة بكاملها ، تتضمن هذا المنهج التربوي للنبي ﷺ ، وللإسلام والمسلمين ، وكل ما يحتاجه هو التأمل

فيه ، والتدبر في معانيه ، والاستفادة منه ، ووضعه موضع التنفيذ ، والنظر إليه بمنظار العقل أولاً ، والعقيدة والشرع ثانياً ، دون أن نضعه تحت المجهر الأجنبي المعادي ، ولا ننظر إليه من وراء النظارات المستوردة ، والعيون الحاقدة ، والسدود الاستعمارية ، ومن خلال الغزو الفكري ، والنظريات الدخيلة التي لم تعرف الإخلاص لهذا الوطن ، ولا تحمل المودة لهذه الأمة ، ولا يتوقع منها النصح والإرشاد لهذا الدين ، ولا تتسم بالموضوعية والنزاهة في معالجة قضايانا وتراثنا وثقافتنا وتاريخنا .

٥- التطبيق العملي في التربية النبوية :

إنَّ الناظر في النظريات التربوية في العالم القديم والحديث يراها تعتمد على مبادئ مجردة ، وفلسفات محضه ، ينادي بها أصحابها ، ويدعو إليها العقلاء والمفكرون والمصلحون وعلماء التربية ، وقد يسعى هؤلاء أحياناً إلى نقل هذه النظريات إلى الحياة والتطبيق ، وقد يحاولون نقلها إلى التجربة ، وكثيراً ما يضعون الخطط والمناهج ، ويطلبون من غيرهم أن يقوموا بتطبيقها ، ويهيئون بالمسؤولين أن يعملوا

لتنفيذها ، وكثيراً ما تصطدم هذه النظريات بالواقع ، ويظهر عجزها عن الحياة ، أو صعوبتها في التطبيق ، أو استحالتها في التنفيذ ، فتبقى حبراً على ورق ، وفلسفة كلامية .

وقد يظهر عند تطبيق هذه النظريات مشاكل جديدة ، وصعوبات جمة ، لم تخطر على بال صاحب النظرية ، ولم يضع لها حلاً ، لذلك يقوم أتباعه أو من تبنّى أقواله ، بمحاولة التعديل في الصياغة ، والتحوير في النظرية ، والتهذيب في المبادئ ، والتوضيح للأفكار ، والشرح على المتون ، والبحث عن الروح والباعث وما كان يخطر في ذهن المربي ، وقد يحافظ الأتباع على الأصل ، ويكون التعديل طفيفاً أو تكميلاً ، وقد يكون التعديل جذرياً ، وينسف النظرية من أساسها ، ولا يبقى منها إلا الاسم كشعار لها ، احتراماً لصاحبها ، ورمزاً يجمع الأتباع والأنصار ، وقد يخرج أحدهم أو غيرهم عن الطوق ، فيلغي النظرية الأصلية ويقترح البديل ، وتاريخ التربية أكبر شاهد على ذلك ، ونتيجة لهذا التطور في التاريخ البشري نرى الدول تغير المناهج ، وتبدل الطرق التربوية ، وتعُدّل الوسائل ، وتنسف الأجهزة التربوية القديمة ، وتضع البديل ، ثم تدفعه إلى حيز التطبيق

والتنفيذ ، وتعود النتائج بالعيوب والمساوىء ، وتبحث عن الإصلاح والبديل ، وهكذا دَوَّالَيْكَ .

أما التربية النبوية فكانت على العكس من ذلك تماماً ، فكانت تنطلق من الواقع والحياة ، وكان التطبيق العملي أحد المقومات الأساسية ، والمصادر الرئيسية لصياغة التربية النبوية ، وكان التطبيق مقترناً مع الفكرة ، والقول مرافقاً للعمل ، وكأن التربية النبوية تخطت مرحلة وجود النظرية أصلاً ، وتجاوزتها مباشرة إلى التطبيق والتنفيذ ، والسُرْفِي أَنَّ مصدرها رباني إلهي ، كما سبق ، فأعفت الإنسان أصلاً من البحث عن النظرية ، ثم وقَّرت عليه مرحلة التجربة ، لمعرفة الناجح ، ونبذ الفاسد ، أو اصطفاء الصحيح ، وترك الباطل ، ونزَّهت البشرية أو الإنسانية ، أن تكون حقل تجارب ، فيضيع جيل بأكمله ، أو أجيال ، فداء تطبيق نظرية ، أو بث الحياة في فلسفة محضة ، ومن هنا تفرَّدت التربية النبوية بصفة التطبيق العملي ، وكانت مبادئها وقيمها وأحكامها تنزل مباشرة من السماء ، وتصدر قولاً من الرسول المعلم ، لتأخذ طريقها مباشرة - وبدون تردُّد أو توقف - إلى التطبيق والتنفيذ ، وإلى الأداء والعمل .

وتتجلى هذه الميزة في التربية النبوية بعدة أمور ، منها :
تطبيق الرسول ﷺ لذلك على نفسه أولاً ، وأنه قدوة وأسوة
لأمتة وأصحابه ثانياً ، وأن المنهج الرباني يقوم على ربط
الإيمان بالعمل ثالثاً ، ويقترن القول بالفعل رابعاً .

أ- البدء بالنفس :

تمتاز السيرة النبوية عامة ، والتربية النبوية خاصة أنها تقوم
على مبدأ ديني أساسي ، وقاعدة تعليمية حكيمة ، ومنهج
تربوي مقرر ، وهو تطبيق الأحكام الشرعية والعبادات
والأخلاق والقيم أولاً ، ومباشرة من رسول الله ﷺ ، فالرحي
الإلهي - المتلو وغير المتلو - كان ينزل مباشرة على
رسول الله ﷺ ، وهو أول المخاطبين بخطاب الله تعالى ،
وهو أول المكلفين بتطبيق الشرع وتنفيذه ، وكان عليه الصلاة
والسلام - فوق ذلك - مكلفاً ببعض الأحكام الخاصة ،
والتكاليف الإضافية ، والأعباء الزائدة على بقية أمتة ، خلافاً
لما نراه من أصحاب السلطة والنفوذ ، ومن يتولى قيادة
الناس ، وريادة الأفراد من محاولة إعفاء نفسه من بعض
الواجبات والتكاليف ، والتهرب من تطبيق بعض ما يدعو

إليه ، ليحظى بالامتيازات الخاصة ، والإعفاءات العديدة ، فكان رسول الله ﷺ يبدأ بتطبيق المنهج الإلهي والأحكام الشرعية على نفسه ، ثم يأمر بها أصحابه ويدعو الناس إليها ، وكان عليه الصلاة والسلام في كثير من الأحيان يبدأ بتطبيق الحكم الشرعي الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ليكون فعله أصلاً هو المصدر للتشريع ، والباعث للدعوة ، والمحرك للاقتداء ، دون أن يقرنه بالكلام ، لذلك قرر علماء الشريعة بالإجماع أن أفعال الرسول ﷺ مصدر للتشريع وأخذ الأحكام .

وكان رسول الله ﷺ يطبق الشرع تطبيقاً كاملاً ودقيقاً ، بحيث لا مجال للزيادة عليه ، وكان يأخذ نفسه - أحياناً - بأكثر مما يأخذ به غيره ، فدعا مثلاً إلى قيام الليل ، وكان يقوم الليل كله إلا قليلاً ، ويدعو للطاعة والنوافل ، وكان أكثر المسلمين تنفلاً ، ويصلي حتى تتورم قدماه الشريفتان ، ويبين فضل صوم التطوع ، ويصوم حتى يقال لا يفطر ، ويحرض على الجهاد ، ويتولى بنفسه قيادة الجيش في الغزوات ، ويأمر بالثبات في الحرب والقتال ، ثم يلتزم به ، كما جاء في عدة غزوات كأحد وحنين عندما هزم أكثر الجيش ، وبقي عليه

الصلاة والسلام ثابتاً ثبوت الجبال ، ينادي أصحابه بالعودة ،
ويتحدى الكفار قائلاً : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد
المطلب . كما يقف في مقدمة المقاتلين ؛ وفي أول
الصفوف ، وهو ما حدثنا به أحد أبطال المسلمين ، وأعظم
الشجعان بينهم ، وهو علي كرم الله وجهه ، فيقول : « كُنَّا إِذَا
حَمَى الْوُطَيْسَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ » ، وإذا دعا عليه الصلاة
والسلام إلى الأخلاق الفاضلة كان في قمة السلوك الأخلاقي ،
والتعامل السامي مع أهله وجيرانه وأصحابه وجميع الناس ،
ويصبر على الإيذاء ، ويحسن إلى الضعفاء ، ويبرئ الأرحام ،
ويكرم الضيف ، ويسامح المسيء ..

وهكذا كان الرسول المربي مع أصحابه ، وبين قومه ، في
جميع مجالات الحياة ، يطبق التربية المستمرة والدائمة ،
مما ينفرد به على جميع المعلمين والمربين في العالم ،
ويسمو على جميع المفكرين والدعاة وأصحاب المبادئ
والنظريات .

وكان لهذه التربية العملية ، والتطبيق الفعلي في جميع
مجالات الحياة ، وتحت نظر المسلمين جميعاً ، وعلى مرأى
منهم : في البيت والطريق ، وفي المسجد والمجتمع ، وفي

العمل والمعاملات ، وفي الجهاد والقتال ، وفي الحرب والسلم ، كان لذلك أثر بالغ وتأثير عميق ، أحاط بالنفوس من جميع جوانبها ، فكان الشغل الشاغل للقلوب ، والمحور الجذاب للالتفاف حوله .

وإن هذه الميزة العظيمة في التربية النبوية ، وهي البدء بالنفس ، هي المبدأ التربوي والتعليمي المتفق عليه بين علماء التربية ، تحقيقاً لقول الشاعر العربي :

أبدأ بنفسك فانها عن غيها فإذا انتهيت إذن فأنت حكيم
وهو ما يقرره القرآن العظيم في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْإِثْرِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ﴾

[البقرة : ٤٤] .

ب- القدوة والأسوة :

ويتصل بالمبدأ السابق في البدء بالنفس قاعدة تربوية أصيلة ، وحكم شرعي ثابت ، وهو أن الرسول المرابي ﷺ يلتزم بالتطبيق العملي للتربية والشرع باعتباره قدوة لغيره في جميع أعماله ، وأسوة للمسلمين في كل زمان ومكان ، وقوفاً عند قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ذلك أن التربية في أساسها توجيه علمي ، وتلقين نظري ، تهدف إلى تهذيب السلوك ، ومن هنا كانت التربية عن طريق القدوة ذات أثر فعال ، كيلا تقتصر التربية على النواحي النظرية أولاً ، ولتجنب مخاطر الطريق أثناء ترجمتها إلى السلوك والعمل والتطبيق ثانياً .

وكان رسول الله ﷺ يربي الأمة عن طريق القدوة ، ويعتبر نفسه أول الناس ، وأولى الناس ، بتنفيذ ما يدعو إليه ، وتطبيق ما جاء به ليحقق أمرين معاً :

- الأول : لتربية الصحابة عن طريق الاقتداء به ، والتأسي بأعماله ، والسير على منواله ، ومحاكاة أفعاله ، ومشاركته عملياً بإقامة شرع الله ودينه في الأرض ، دون الاقتصار على مجرد المشاركة الوجدانية والروحية .

- والأمر الثاني : ليكون عمله ﷺ وسلوكه الصورة المثالية ، والنموذج الصحيح الدقيق للمبادئ النظرية ، والأحكام الدينية التي يدعو إليها ، فيقطع الطريق أمام الانحراف في السلوك ، والخطأ في الفهم والتأويل ، والاختلاف في التطبيق والتنفيذ .

جـ - اقتران القول بالعمل :

ونتيجة للقاعدتين السابقتين في البدء بالنفس ، والتربية بالقدوة ، كان رسول الله ﷺ يترجم الأقوال إلى أفعال ، والكلام إلى عمل ، والمبادئ إلى سلوك ، والوصايا إلى امثال ، وكانت حياته ﷺ ترجمة عملية للقرآن الكريم ، وتجسيدا كاملا للإسلام ، وهذا ما عبّرت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : « كان خُلُقَه القرآن »^(١) .

ويقاس على ذلك بقية أحكام القرآن والإسلام ، في مختلف جوانب الحياة والسلوك ، فكانت عقيدة القرآن والإسلام ، وكانت عباداته عبادة القرآن والإسلام ، وكانت معاملاته بمقتضى أوامر القرآن وأحكامه ، وكانت آدابه ووصاياه متفقة مع ما جاء في القرآن والإسلام .

وكانت سيرته الشريفة صورة مثالية للحياة الإنسانية في

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن وأحمد والدارمي (انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٢٦/٦ ، مسند أحمد ٥٤/٦) .

جوانبها الخاصة والعامة ، العقلية والروحية ، والعاطفية والأخلاقية ، المالية والاجتماعية ، ليكون عليه الصلاة والسلام قدوة مثالية للمسلمين في جميع جزئيات حياتهم ، ويكون عليه الصلاة والسلام المثل الكامل والأسوة الحسنة في جميع المجالات ، فهو المعلم الناجح ، والمربي الرشيد ، والموجه الحكيم ، وهو الزوج المثالي في بيته وفي معاملته لزوجاته وأهله ، وهو القريب الرحيم لذوي قرباه ، والأب العطوف لأولاده ، والصديق الوفي لأحبابه ، والجار النبل لمن حوله ، والأخ الوفي ، والصديق المحب ، كما أنه الصورة الصحيحة لرجل العقيدة ، وصاحب الرسالة ، والداعية المخلص إلى الله تعالى بصبر وتضحية ، وهو الشاب المستقيم في حيويته ، والقائد المتصر ، والمحارب الشجاع ، والسياسي الناجح ، والمعاهد الصادق ، والمفاوض الحكيم ، ورئيس الدولة الفريد من نوعه ، بين أصحابه وأمام أعدائه .

وباختصار فقد تجسدت الرسالة الإسلامية في شخصية الرسول ، ليكون فاعلاً في التربية ، ونموذجاً صالحاً للإنسان لمسلم ، ولا يزال هذا الأثر الفعال في السيرة عاملاً عظيماً في

تربية الأجيال المسلمة ، واستقصاء الإلهام منها في كل زمان
ومكان .

د- ربط الإيمان بالعمل :

إن المبادئ الثلاثة السابقة في التطبيق العملي للتربية
النبوية تنطلق من أساس عقائدي ، وقاعدة إسلامية ، وهي
ربط الإيمان بالعمل .

ذلك أن التربية تتجه إلى تهذيب اللسان بالقول ، وتصحيح
السلوك بالفعل ، وتحريك طاقات الإنسان إلى الإنتاج
والعمل ، وتهدف في النتيجة إلى حسن التصرف عملياً .

والإنسان في الواقع يتحرك من داخله ، وما تمليه عليه
أفكاره وآراؤه ومعتقداته ، وينفذ ما يقتنع به ، ويسعى إلى
تطبيق ما يعتقد به .

لذلك اهتم الإسلام والقرآن عامة ، والتربية النبوية خاصة
بالإيمان والعقيدة ، وجعلوهما بالمكان الأول والأعلى ،
وبقي الرسول ﷺ طوال العهد المكي يبني العقيدة ، ويفرس
الإيمان ، ثم ربط الإيمان بالعمل ، وقرن بينهما برباط
محكم ، لا يقبل الفصل ، ولا الانفصام ، وجاء ذلك في

آيات كثيرة ، وأحاديث عديدة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ تَحْنُ أُولِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شِئْتُمُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٣-١٤] ، وروى الإمام مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » ، وفي رواية الترمذي : قلت : يا رسول الله ، حدثني بأمر أعتصم به ، قال : « قل ربِّي الله ، ثم استقم » ، قلت : يا رسول الله : ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا » ^(١) . وهذه الزيادة في رواية الترمذي تشير

(١) انظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ١/ ١١٨ ، ١١٩ .

إلى التحذير من فصل القول عن العمل ، وإطلاق اللسان بما لا يعمل به الإنسان ، وأن الفصل بين الإيمان والعمل يعتبر شذوذاً وانحرافاً .

والإسلام اعتبر الإيمان أساساً متيناً لبناء الإنسان الكامل ، وتربية المسلم القويم ، ولكن العمل هو المعيار الذي يبرهن على صحة الإيمان ، وصدق العقيدة ، وأن العمل تحقيق عملي لمعنى العقيدة في حياة الإنسان ، وبرهان على صدق الإيمان الداخلي ، ورسوخه في النفس ، واستقراره في القلب ، كما أن العمل الصالح مدد للإيمان ، وتغذية له ، وتنمية لجذوره ، لأن الإيمان يزيد وينقص في مذهب الجمهور ، لقوله تعالى : ﴿ وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ [الفتح : ٤] ، فالإيمان يزداد قوة وثباتاً بالطاعة والعبادة ، وينقص ويتضاءل ويخبو نوره بالمعصية والمخالفة ، وتأتي عبادة الله وطاعته ، لتنفذ إلى قلب المؤمن بأشعة النور والهدى ، فيرى الخير خيراً فيفعله لنفسه ولغيره ، ويرى الشر شراً فيبتعد عنه ويحذر غيره منه ، وكما أن العمل بغير إيمان لا ينفع ، فالإيمان بلا عمل لا يجدي أمام الله

تعالى ، ويحاسب الإنسان على ترك العبادة ، وسوء الأخلاق ، وانحراف السلوك في الدنيا والآخرة .

وكان المفكر الروسي تولستوي يصرح : « بأنه من السهولة بمكان أن يضع آلاف النظريات ، ولكن من الصعوبة أن يحول نظرية واحدة إلى تطبيق »^(١) .

أما رسول الله ﷺ فكان يعتمد في التربية النبوية على تحويل كل قول إلى عمل ، وكل نظرية إلى تطبيق ، وكل مبدأ إلى واقع حي ، وكل خلق إلى سلوك ، ويبث الحياة في الأحكام حتى تسير في الطريق ، وأمام العيان ، متخطياً مرحلة التجربة التي تحتمل الصواب والخطأ ، أو النجاح والفشل ، لكونه معصوماً من جهة ، وأنه رسول رب العالمين يحمل المنهج الإلهي الذي نزل به القرآن ، ويتلقى التوجيهات الإلهية في العمل ، ويتمتع بالرعاية الإلهية في التربية والدعوة من جهة أخرى ، ونجح عليه الصلاة والسلام في صياغة ذلك كله في حياة الصحابة الذين جمعوا بين الإيمان والعمل ، وقرنوا القول بالفعل ، وربطوا بين الإيمان والسلوك ، والنظرية والتطبيق .

(١) انظر : معجزة الإسلام التربوية ص ٣١ .

والدليل الصريح على ما نقول هو ما سطره لنا الصحابة في وصف منهج التربية النبوية فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال : حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النَّبي ﷺ ، أنهم كان يقرءون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العُشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل ، قالوا : فعَلَّمنا العلم والعمل^(١) .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن السُّلَمي نحوه ، وأخرجه ابن سعد عن أبي عبد الرحمن وزاد : « فكنا نتعلم القرآن والعمل به » .

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا تعلَّمنا من النَّبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم التي بعدها حتى نعلم ما فيها ، فقليل لشريك : من العمل ؟ قال : نعم^(٢) .

ولذلك يعتقد المسلم برسول الله ﷺ أنه كان أسوة وقدوة ، ومعلماً ومربياً ، ويقدم حبّه على نفسه وماله وولده

(١) مسند أحمد ٤١٠/٥ .

(٢) انظر : حياة الصحابة ٩٨/٢ .

وأهله ، ويتقرب إلى الله بطاعته وتنفيذ سنته ، والالتزام
بهدية ، والسير على نهجه ، ويعلن بأن محمداً ﷺ المربي
الأول ، والمعلم المثالي ، والموجه النموذجي في الحياة ،
وأن صحابته أفضل جيل عرفه التاريخ عقيدة وسلوكاً ، وإيماناً
وعملاً ، قولاً وفعلًا ، دعاة وحكاماً .

٦- الروح الأخلاقية في التربية النبوية :

الأخلاق جمع خلق ، وهو صفة مستقرة في النفس
- فطرية أو مكتسبة - ذات آثار في السلوك محمودة أو
مذمومة^(١) .

والأخلاق ذات أثر بليغ في التربية ، ولها صلة كبيرة في
سلوك الإنسان وتصرفاته ، وتتصل مع فكره وثقافته ، وأهدافه
وغاياته في الحياة ، ولذلك كانت محل اهتمام كبير عند علماء
التربية .

وإن اهتمام التربية بالأخلاق تشترك فيه التربية النبوية مع
غيرها ، ولكن في كثير من الأحيان تكون التربية الأخلاقية هي

(١) الأخلاق السامية وأسسها ٧/١ .

الهدف الوحيد ، والغاية المقصودة للنظريات التربوية في القديم والحديث ، وتغفل معظم هذه النظريات التربوية عن الجوانب الأخرى في الإنسان والحياة ، وقد تلغي بعض النظريات التربوية قواعد الأخلاق من مناهجها ، بينما تمتاز التربية النبوية بأنها تعتمد على الأخلاق باعتبارها أحد الأركان الأساسية في التربية التي تقوم على الشمول ، كما سبق ، وتعتبر الأخلاق أحد الدعائم الأربعة في الشريعة مع العقيدة والعبادة والتشريع .

لذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه مالك وأحمد والحاكم والبيهقي : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » ، ويصفه أحد الصحابة - فيما رواه البخاري - لقوله : « رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ »^(١) .

وربط رسول الله ﷺ الأخلاق بالإيمان ، فقال عليه الصلاة والسلام - فيما رواه أبو داود وأحمد - : « أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنَهُمْ خَلْقًا »^(٢) ، ورغب رسول الله ﷺ بالأخلاق

(١) انظر : صحيح البخاري ٣٩/٤ ، الموطأ ص ٥٦٤ ، مسند أحمد ٣٨١/٢ ، الفتح الكبير ٨/٢ .

(٢) رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة ، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد (الفتح الكبير ٢٢٨/١) .

الفاضلة ، وأنها من أحسن الصفات ، وأقرب الأعمال إلى مرضاة الله تعالى ، فقال فيما رواه البخاري والترمذي وأحمد : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً »^(١) ، وعدَّ رسول الله ﷺ الأخلاق الحسنة من أثقل الأعمال في ميزان العبد يوم القيامة ، فقال عليه الصلاة والسلام - فيما رواه أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً - : « مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ »^(٢) .

ولا نريد الإسهاب في الكلام عن أهمية الأخلاق العامة ، وحرص التربية النبوية عليها خاصة ، لأن ذلك يستوعب المجلدات ، ويكفي أن نشير إلى أن الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام ، وطبقتها التربية النبوية ترتبط بمعظم أحكام الشريعة في العقيدة والعبادة والتشريع ، وتعتبر الأخلاق الرديف المباشر بعد العقيدة لحماية الإنسان وحسن التطبيق والالتزام بالأحكام ، وهي الجناح المساعد للعقيدة في إقامة

(١) انظر : صحيح البخاري ٣٩/٤ ، الفتح الكبير ٤١٥/١ .

(٢) انظر : الفتح الكبير ١١١/٣ .

المجتمع وصلاحه ، وتوفر العناصر لتقدمه وتطوره ، وعليها تقوم الحضارات ، ويبني الوطن ، وتحافظ الأمم على وجودها ، وهذا ما قصده شوقي بقوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن هذا المنطلق كانت التربية النبوية تجمع بين الواقعية والمثالية ، واقعية الإنسان في تكوينه وفطرته ونشأته وتطوره ، وواقعه في الحياة والكون ، ومثاليته التي يرنو إليها ويسعى وراءها ، وخلق من أجلها ، وتجمع التربية النبوية بين العدل والإحسان ، العدل المطلق ، والعدالة الكاملة التي طبقها الرسول ﷺ على نفسه وأهله وأقربائه ومجتمعه ، « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها »^(١) ، وبين الإحسان الذي تجمل به الرسول ﷺ وطبقه على نفسه ، ودعا الناس إليه ، ثم قرنه بالرفق واللين ، والعطف والحنو على أصحابه وأمته ، والتيسير والتخفيف والرحمة الواسعة التي أرسل بها ، وشهد الله له بها ، فقال

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن عن عائشة مرفوعاً (الفتح الكبير ١/٤٣٧) .

تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ،
 وخصّه بصفتين من صفات الرحمن بقوله : ﴿ يَا مُؤْمِنِينَ
 رُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وتظهر أهمية هذه الروح الأخلاقية التي بثّها الرسول ﷺ
 في التربية النبوية في كل زمان وعصر ، وخاصة في وقتنا
 الحاضر ، وأن أمتنا اليوم - قبل غيرها - تمرُّ بأزمة أخلاقية
 مستعصية ، تكاد أن تشل جميع أنشطة الحياة ، وتسد الطريق
 أمام المبادئ التربوية كاملة ، وتهدم كل ما بينه الإنسان ،
 فكرياً وتربوياً ، نفسياً وعقلياً ، مادياً وحضارياً ، وأن أسمى
 الوسائل التقنية والفنية التي وصل إليها إنسان اليوم تصبح وبالاً
 على الناس إذا فسدت الأخلاق ، واضمحلت القيم الخلقية
 في المجتمع ، وأن مشكلتنا اليوم مشكلة أخلاقية ، وليست
 فكرية أو علمية أو صناعية ، فآلات الحضارة والصناعة يمكن
 استيرادها والاعتماد على الدول الأخرى فيها ، والعلم مشترك
 بين الأمم ، ويمكن نقله بسهولة في وقت قصير ، أما الأخلاق
 فهي خاصة بالأمة ، ويصعب استيرادها ، كما تحتاج إلى وقت
 كبير ، وجهد طويل لبنائها وغرسها في المجتمع .